# فقهُ الخلاف

## منهج لتوحيد العمل الحركى للدعاة

بقلم

**د/ فوزى عبدالعظيم رسلان قمر**

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

لجنة التحكيم

أ.د/ محى الدين الصافى  أ.د/ عوض الله حجازى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، الذين تعلم على أيديهم الكثير من العلماء من أهل الضبط والصلاح ، فنشأ من اتباعهم جم غفير ، فشمروا عن ساعدهم طلبا للعلوم ، فبلغوا بذلك أعلى مكانة ، واجتهدوا غاية الاجتهاد ، فى تحرى الصواب والمراد ، طلبا لآداء الأمانة ، فاختلفوا بشدة اجتهادهم فى طلب الحق ، وكان اختلافهم رحمة وائتلافا للحق ، أسوة لمن بعدهم فى طلبه ، فوجب لهم منا الدعاء بالمغفرة والرحمة والرضوان ، فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» [1].

وبعد :

فإن الوصول إلى الحق يحتاج إلى الذكاء قدر ما يحتاج إلى الاخلاص له ، ومن ثم فإن الله - عز وجل - قد منح أجرين لمن عرفه ، ومنح أجرا واحداً لمن أخطأه وهو حريص على بلوغه ..

وبعض الناس يظن أن خطأ مجتهد ما قضاء على مكانته ، ونسف لشخصيته ، وهذا جهل كبير ! فما أكثر الأخطاء التى وقع فيها مجتهدون من كبار الأئمة ... أجل إن بناءهم العلمى شاهق ، والخير الذى انفجر منهم دافق ، فلا تهدمهم قذاة ، أو تزرى بهم كبوة ! والدهماء ميالون إلى القول بعصمة الأكابر ، والاسلام ( الدين القيم ) علم أتباعه أن العصمة لواحد فقط هو محمد

---

١- سورة آل عمران الآية (٨).

ابن عبدالله ﷺ المبلغ عن ربه دينه الخاتم ، بذلك كان المنهج الذى من خلاله عرف الرجال ، ... إنهم يعرفون بالحق ، لا يعرف الحق بهم ، ومنه كان النظر والتأمل إلى كل ما قيل دون تهيب أو تخوف ، ذلك أن الإنسان عدو ما يجهل.

ومن المعلوم أن طلب العلم رسالة ، وكشف المجهول غاية.

ولما كان القرآن الكريم هو الدستور الأول للإسلام ، ومحمد رسول الله ﷺ النبى الخاتم ، الذى أوصل لنا هذا الكتاب مبينا وموضحا ما جاء فيه ، فإن قوله، وفعله ، وتقريره ، وحكمه ضميمة تؤخذ مع هذا الكتاب ، وتعد مصدرا ثانيا للإسلام.

فإذا اختلف علينا الفهم ، وتشابهت أمامنا الطرق ، فالمرجع الأوحد لتحديد المعنى وتوضيح المنهج ، هو قول الله - تبارك وتعالى - ثم سنة نبيه محمد ﷺ ، والقارئ لأصول الإسلام يعلم بسهولة : أن الإسلام كتبت لأحكامه الخلود ، وأن الله - عز وجل - تأذن أن يكون قرآنه هذا آخر وحى ينزل من السماء ، وأن يكون محمد ﷺ هو مسك الختام فى سلسلة الأنبياء ، بذلك لم تتغير آية ، ولن ينسخ نص ، ولن يبدل حكم ، ولا يؤذن لبشر فرد ، ولا لجمع من الناس أن يتدخل فى وحى الله بزيادة أو نقص.

لقد تم كل شئ وانتهى ... « وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم »[1].

لكن .... مع مرور الزمن ، وتجدد الليالى ، ظهرت على ساحة العالم الإسلامى قضايا كانت مدار بحث واجتهاد بين العلماء ، وكانت النتيجة الاختلاف فيما بينهم ، الأمر الذى نصب العداء والشقاق بين الأمة الإسلامية

---

١- سورة الأنعام الآية (١١٥) . اشارة : كتبت لفظة ( كلمة ربك ) هكذا ( كلمت ربك ) بالرسم العثمانى.

-الواحدة- ولو فطن المختلفون من العلماء إلى ذلك لأتلفوا من خلال الخلاف ، وجعلوه رحمة بالأمة من أجل الاتفاق لا الشقاق ، لذلك لا يكاد يختلف إثنان من المسلمين اليوم ، على أن ظاهرة الاختلاف والشقاق بين المسلمين - اليوم - داء يوقف حركة الدعوة الإسلامية فى كثير من البلدان ، ... ، وهذا الاختلاف ربا نتيجة انحراف فى الفهم ، وانغلاق الأفق فى دياجير هذه التربية التى استحوذت جميع السلوك الإنسانى ، وصار الخطر ليس كامنا فى الخلاف العلمى ، بل تعداه إلى الخلاف السلوكى ( الحركى ) فاشتدت الأزمة وتفاقمت ، وأصبحنا غرباء بين ذواتنا وأهلينا ، وبمرور الزمن يكون العداء ، وهذا خطر عظيم ... لذلك لزمنا -نحن العلماء- مواجهة هذا الخطر بالسيطرة على الخلاف من خلال الممارسات الحركية - السلوكية - المتوالية على اختلاف ساحات الدعوة الإسلامية ، بتحدياتها المتعددة .... وهنا يبرز أهمية ( فقه الخلاف ) بشمولية معالجته للظاهرة والأزمة ، كضرورة لاغنى عنها لأى عمل إسلامى جاد.

لذلك جاء هذا البحث الذى أقدمه للقارئ الكريم ، محاولا من خلاله سد ثغرة فى البناء الفكرى ، والمنهج التربوى الإسلامى ، لهذه الظاهرة ، واضعا تحليلا علميا واقعيا لأسباب الظاهرة ، وجذورها ، ثم طرق علاجها الواقعية ... أسأل الله العون والتوفيق إنه - سبحانه - سميع مجيب الدعاء ،،

*دكتور/ فوزى عبدالعظيم رسلان قمر*

# التعريف بفقه الخلاف

**الفقه لغة :**

العلم بالشيئ والفهم له ، وغلب على علم الدين لسادته ، وشرفه ، وفضله على سائر أنواع العلوم ، وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة، شرفها الله تعالى ، وتخصيصا بعلم الفروع منها ، بذلك قال ابن الأثير.

وقال غيره : الفقه فى الأصل الفهم. يقال أوتى فلان فقها فى الدين ، أى فهما فيه.

قال تعالى : « ليتفقهوا فى الدين »[1] ، أى ليكونوا علماء به ، وفقهه الله ، ودعا النبى ﷺ لابن عباس فقال : « اللهم علمه الدين وفقهه فى التأويل»[2] أى فهمه تأويله ومعناه ، فاستجاب الله دعاءه ، وكان من أعلم الناس فى زمانه بكتاب الله تعالى. ويقال : رجل فقيه : عالم ، وكل عالم بشئ فهو فقيه ، والفقه : الفطنة .[3]

**وفى الاصطلاح الشرعى :**

هو مجموعة الأحكام الشرعية المتعلقة بما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال ، المستفادة من النصوص فيما وردت فيه نصوص، والمستنبطة من الدلائل الشرعية الأخرى فيما لم ترد فيه نصوص. ( مجموعة الأحكام الشرعية العملية المستفادة من أدلتها التفصيلية) [4].

---

١- سورة التوبة من الآية رقم (١٢٢).

٢- ورد الحديث بلفظ آخر « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » عن ميمونة - رضى الله عنها - ( صفوة الصفوة ابن الجوزى جـ ١ ص ٣٢٣ ) ، وفى مسلم بلفظ : ( اللهم فقهه ) عن عبيد الله بن أبى يزيد عن ابن عباس جـ٧ ص ١٥٨.

٣- لسان العرب - ابن منظور - ص ٣٤٥٠ مادة ( فقه ).

٤- علم أصول الفقه - عبدالوهاب خلاف - ص ١١.

## مدلول الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى :

يراد بالشريعة الإسلامية ما شرعه الله لعباده المسلمين من أحكام [1] ، سواء كانت هذه الأحكام متعلقة بالعقيدة أم بالأخلاق ، أم بتنظيم ما يصدر عن الناس من أقوال وأفعال وتصرفات.

والأحكام الخاصة المتعلقة بالعقيدة تدور حول الإيمان بالله ، وكتبه ، ورسله ، والدار الآخرة ... إلخ ، وهذه الموضوعات أفرد لها المسلمون علما خاصا بها هو (علم الكلام ) أو ( علم التوحيد ). أما الأحكام المتعلقة بالأخلاق مثل تهذيب النفس وما يجب أن يكون عليه الإنسان فى علاقاته الإجتماعية ، والمثل العليا التى يجب أن يتحلى بها ... الخ ، فتدخل فيما يعرف عندهم باسم الآداب ( أى علم الأخلاق ) . أما مجموعة الأحكام الشرعية العملية ( السلوكية ) التى تبين ما فى أفعال المكلفين من حل ، وحرمة ، وكراهية ، وندب ، وإباحة ، فإنهم خصوها بتعبير ( فقه ) [2].

من هذا يتبين لنا أن تعبير ( الفقه ) أخص من الشريعة ، لأن الفقه كان يطلق فى بادئ الأمر على العلم بجميع الأحكام الشرعية ، ومعرفتها معرفة تفصيلية مستمدة من القرآن والسنة وغيرهما من الأدلة الشرعية ، سواء ماكان منها متعلقا بالعقائد ، أم بالأخلاق ، أم بأفعال المكلفين ، ثم تخصص هذا التعميم ، فاقتصر مدلول الفقه على معرفة وفهم جانب من الأحكام الشرعية وهى

---

١- يقصد بالحكم الشرعى : خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين من طلب أو تخيير أو وضع ، أى ما يصدر عن الشارع من أوامر لتنظيم حياتهم الإجتماعية وعلاقتهم ببعضهم وتحديد آثار أعمالهم وتصرفاتهم . ويمكن تشبيه الحكم الشرعى بما يعرف عند رجال القانون بالقاعدة القانونية. فهم يريدون بالحكم نفس النص ، الذى يصدر من القاضى ، ولهذا يقولون : منطق الحكم كذا. ويقولون : أجلت القضية للنطق بالحكم. ( أنظر المصدر السابق ص ١٠٠).

٢- أنظر بتفصيل : الأزهر فى ندوة الفقه الإسلامى / كلمات الامام الأكبر جاد الحق على جاد الحق ص ١٠ ، ١١.

الأحكام العملية التى تخص أفعال المكلفين. وبذلك تخرج أحكام العقائد ، والأخلاق. ثم أصبح تعبير الفقه ينصرف ليس فقط إلى المعرفة بالأحكام الشرعية العملية ، بل إلى هذه الأحكام نفسها [١]. والفقه بهذا المعنى الأخير يشمل نوعين من الأحكام.

١- أحكام خاصة بعلاقة الفرد بربه ، وتسمى العبادات.

٢- وأحكام خاصة بعلاقة الناس ببعضهم وتسمى المعاملات.

بذلك يتبين أن الشريعة أعم بكثير من الفقه ، وقصر مدلول الفقه على المعنى الخاص - الذى بيناه - لم يحدث إلا بعد مضى عدة سنوات من إنتشار الإسلام ، وهو المعنى السائد حتى الآن [٢] .

يقول ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الذى عقده عن علم الفقه وما يتبعه من فرائض : « إن هؤلاء الذين يستخرجون هذه الأحكام كانوا يسمون فى فجر الإسلام بالقراء ... تمييزا لهم عن الذين لم يكونوا يقرءون القرآن ، إذ كان العرب أمة أمية ، كما نعلم ، ثم عظمت أمصار الإسلام ، وذهبت الأمية بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه ، وأصبح صناعة وعلما ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء » [٣].

زد على ما تقدم أن فروع الفقه الإسلامى شاملة لأمور الدين والدنيا ، كما أن الشريعة الإسلامية تقوم على تنظيم شامل لكافة أوجه النشاط البشرى فى جوانبه الروحية والأخلاقية والمادية [٤] ، والذى يهم الدعاة هو جانب الاصلاح

---

١- أنظر : المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، محمد يوسف موسى ، ص ٧ ، ١٠ . الفقه الإسلامى ، محمد سلام مدكور ، ص ٩ ، ٣٥ ، ٣٦.

٢- تطبيق الشريعة الإسلامية فى البلاد العربية ، صوفى أبو طالب ، ص ١٧.

٣- مقدمة ابن خلدون ، جـ٣ ص ١٠١٣.

٤- المدخل لدراسة الفقه الإسلامى ، محمد يوسف موسى ، ص ١٠٣.

الفقهى المستمد من الشريعة الإسلامية ، فقد فصلت مالا يتغير ، وأجملت ما يتغير ، ضرورة لخلود هذه الشريعة ، ودوامها ، وعمومها ، يقول الإمام الشاطبى فى تفسير قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » [1] ... لم يبق للدين قاعدة يحتاج إليها فى الضرورات، والحاجيات ، أو التكميلات إلا وقد بينت غاية البيان . نعم يبقى تنزيل الجزئيات على الكليات موكولا إلى نظر المجتهد ، فإن قاعدة الإجتهاد أيضا ثابتة فى الكتاب والسنة ، فلابد من اعمالها ، ولا يسع تركها ، وإذا ثبت فى الشريعة أشعرت بأن ثم مجالا للاجتهاد ، ولا يوجد إلا فيما لا نص فيه. ولو كان المراد بالآية : « الكمال بحسب تحصيل الجزئيات بالفعل ، فإنما المراد بحسب ما يحتاج إليه من القواعد الكلية التى يجرى عليها مالا نهاية له من النوازل »[2].

وهذا حق إذ ليس من المقبول عقلا وعملا أن تعرض شريعة جاءت على أساس الخلود والبقاء والعموم ، لتفصيل أحكام الجزئيات ، التى تقع فى الحاضر والمستقبل ، فهذه الجزئيات – مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل وألوانه – متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة ... فلا مناص إذن من هذا الاجمال ، اكتفاء بالقواعد العامة ، والمقاصد التى تنشدها للعالم » [3] ، ومن ذلك – على سبيل المثال – ما جاء فى قول الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » [4] ، هذه القوة ليست محددة أو معلومة – كى لا نحيد عنها – فى النص القرآنى ، بل مطلقة ، إنها تعنى التجنيد المالى ، إلى جانب التجنيد العسكرى ، ومن ثم تعبئة النفوس والأموال ، لخدمة الحق ، والفضيلة ، والإيمان.

---

١- سورة المائدة من الآية رقم (٣).

٢- الاعتصام ، الشاطبى ، جـ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨.

٣- الفقه الإسلامى ، للإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق ، ص ١١٠.

٤- سورة الانفال من الآية رقم (٦٠).

وتجنيد النفوس ، وتجنيد الأموال ليس عملا عسكريا بحتا ... ومن الخطأ فهم ذلك فى عصر تطورت فيه الحروب ، حتى أصبحت علما وإنتاجا يستنفذ طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ... إن تجنيد النفوس والأموال عمل عسكرى ، وزراعى ، وصناعى ، وتجارى ... إنه تسخير للقوى المنتجة ، وجعلها تروسا قوية ، فى الآلة الدائبة التى ينبغى أن تدور فى أوقات الحرب والسلام جميعا للاعداد والاستعداد .... إنها تعنى الحركة الدائمة المستمرة التى لا يبقى معها عاطل ولا يكون فيها خامل متكاسل ... كل هذه الجزئيات شملها النص القرآنى.

## دعوة المجتهدين إلى الاصلاح الفقهى :

إن شريعة الإسلام التى ارتضاها الله لعباده ، وجعلها خاتمة للشرائع كلها ، قد هيأ الله لها فى كل العصور من يقيمها بين المسلمين ، بعقل واع ، وفقه مستنير ، فكانت دعوة المجتهدين إلى الاصلاح الفقهى فى فترات متعاقبة منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، وفى أقطار مختلفة من بلاد المسلمين ، ولقد استهدف هذا الاصلاح الفقهى أموراً ثلاثة :

١- الإقلاع عن التقليد المطلق ، وعن الوقوف عند ما دونه فقه المذاهب القائمة ... والسير بحركة الفقه استمدادا من مصادره الأولى : القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وما قام عليهما ومعهما من أدلة ارتضتها الأمة.

٢- قيام المجتهدين - من الفقهاء والمصلحين - بالتعاون الصادق المعلن فى قول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[1]. والذى لا يخرج عن دائرة الاعتصام بحبل الله ، فإنه سمة الأمة الخاتمة : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا

---

١- سورة المائدة من الآية رقم (٢).

تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » [1] .... وذلك للعمل على إيجاد موسوعة فقهية تحوى الأحكام وأدلتها الصحيحة ، وعرضها للدراسة والتعليم ، بعيدة عن المذهبية العصبية ، والمسائل الغامضة التى لا صلة لها بواقع المسلمين.

٣- الاستفادة فى هذه الدراسة من الفقه الإسلامى بكافة مذاهبه ، دون التقيد بمذهب معين فى التقنين والقضاء باعتبار أن تلك المذاهب المدونة جميعها ترجع إلى أصل واحد ، وتصدر عن معين صاف هو كتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه المعصوم ﷺ وما تفرع عنهما من أدله .... » [2] ، بذلك يحقق الفقه الإسلامى دعوته التى استهدفها من خلال الأدلة الشرعية ، والعقل ، والالتزام.

فمنها يتحدد موضوعه ، وتتكون قواعده ، وتبلور أهدافه ، ومن ثم فإن دعوة المجتهدين إلى الاصلاح الفقهى قد أصلت هذه الميزات الخمس :

الواقعية ، والتجدد ، والمرونة ، والشمول ، وتحقيق الغايات.

ذلك أن أدلة الشرع لا نزاع فى جوب الاحتكام إليها ، أما بداهة العقل فهى المرجع للإنسان حين يستغلق عليه الأمر ، كما قال سبحانه فى غير موضع : «أفلا تعقلون » [3] ، أما الالتزام فإن الوفاء بالعهد أمر مقرر مشهور فى الكتاب والسنة ، والمسلمون عند شروطهم ما دامت الشروط لا تحل حراما ، ولا

---

١- سورة آل عمران من الآية رقم (١٠٣)

٢- أنظر بتفصيل : الأزهر فى ندوة الفقه الإسلامى بعمان ، كلمات شيخ الأزهر ، ص ١٤ ، ٢٢.

٣- سورة البقرة الآيتان رقم (٤٤ ، ٧٦ ) ، سورة آل عمران الآية رقم (٦٥) ، سورة الأنعام الآية رقم (٣٢) ، سورة الأعراف الآية رقم (١٦٩) ، سورة يونس الآية رقم (١٦) ، سورة هود الآية رقم (٥١) ، سورة يوسف الآية رقم (١٠٩) ، سورة الأنبياء الآيتان رقم (١٠ ، ٦٧) ، سورة المؤمنون الآية رقم (٨٠) ، سورة القصص الآية رقم (٦٠) ، سورة الصافات الآية رقم (١٣٨).

تحرم حلالا ، فالحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ... وأن دستورية الحكم إنما تعنى موافقته لمقاصد الشرع التى تتجلى فى أهداف أربعة :

١- إخلاص العمل لله - عز وجل - ... « وما أمروا إلا ليعبدو الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » [١].

٢- تهذيب الفرد والمجتمع ... « ولا تنسوا الفضل بينكم » [٢].

٣- إقامة العدل ... « ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » [٣].

٤- رعاية المصلحة ... وفى الحديث : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » [٤].

هذه الدعوة الاصلاحية لم تغب عن الأقدمين ، وإلا ما تطور الفقه من خلال مرونته الدائمة الباقية ما بقى الإنسان ... وعلى الفقيه الداعى إلى الله على بصيرة ، أن يكون مع الحق أينما كان ، نقيا من أحقاد الطبقية ، بريئا من دنا مات العصبية ، منزها عن خسيس المطامع ، مخلصا فى عمله كى يكشف له المجهول، غير هياب فإن لكل مجتهد نصيب ، ولله در القائل :

وإنى وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

ومن ثم فالهمة العالية ، والقول المؤيد بالدليل القطعى ، والحجة القوية ، مع معرفة ما قرر شرعا ثبات ... بل إحقاق للحق ، وما دونه فهو باطل مقطوع ... ذلك أن الثوابت لا إجتهاد فيها - لا اجتهاد مع نص - ولا إختلاف ، أما

---

١- سورة البينة الآية رقم (٥).
٢- سورة البقرة من الآية رقم (٢٣٧).
٣- سورة المائدة من الآية رقم (٨).
٤- رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - ( الجامع الصغير ، السيوطى، ص ٣٠٤ وصححه ).

غير الثوابت فهو باب لمن له حق الاجتهاد المؤهل لذلك ، وفى قول عمر - رضى الله عنه - ما يوضح ذلك وبينه ، فقد كتب لأبى موسى الأشعرى حينما ولاه القضاء ... « ... الفهم الفهم فيما يتلجلج (يتردد) فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ... ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ... ثم اعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .. » [1].

وما كان هذا الكتاب من عمر إلا اتباعا وتمسكا بما قاله النبى ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن قاضيا ، حيث قال ﷺ له : بم تقضى ؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أقضى بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، فأقره النبى ﷺ وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله » [2].

والذى يعنينا - هنا - أن الفقهاء كانت لهم قواعد وأصول مستمدة من كتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه ﷺ فهما ، كالكون فى نظر العلم الحديث يجرى فيه تجاربه ، وملاحظاته ، ليستخرج نظريات أو ما يقرب منها مما أدى إلى رقى الأمم وتقدم الحضارة.

وكذلك فعل المسلمون من قبل ، استقرؤوا الكتاب والسنة ، وأخرجوا منهما علوما ومعارف كفيلة بارتقاء الفكر الإسلامى ، فكما أن الظواهر الكونية كانت موجودة ثم عرفها الناس ، فكذلك المعارف الإسلامية موجودة فى الكتاب والسنة، عرف بعضها : كالأصول ، والفقه ، وقواعد الجدل الموصل للحق ، وغير ذلك مما استخرجه العلماء السابقون. وقعد اللاحقون عجزا عن تفهمه ، بل عن استخراج مثله ، هؤلاء الذين عطلوا عقولهم وافترسهم الشيطان فجردهم من أسلحة العلم ، كما جرد غيرهم بشبهة أن العلم وسيلة للعمل ، والاشتغال به

---

١- أنظر وبتفصيل : نظام الحكم فى عصر الخلفاء الراشدين ، الباحث ، ص ٩٨ وما بعدها.

٢- أنظر : مصادر التشريع الإسلامى ، السيد سابق ، ص ٥٩ وما بعدها.

تضييع للوقت. فعليهم أن يعملوا - معرضين عن طلب العلم - جاهلين ليدخلوا معركة الشيطان بغير سلاح ، فينهزموا يقينا.

إن المنطق فى نظرهم لأرسطوا الذى لم يكن مسلماً ، وعلم الكلام بدعة ، والتصوف انحلال ، والأدب خلاعة ، وعلم النفس تجارب أجريت على القطط والفئران ، لا يصلح للإنسان ، وأصول الفقه لم يكن يعرفه الصحابة ، والفقه صناعة وحيل ... وماذا بقى من العلم بعد هذا ، ثم يدعون أنهم دعاة الإسلام.

إن أول آية نزلت من كتاب الله تعالى : ( اقرأ ) يالها من كلمة ... ولله در من قال : كيف يستوطن المسلمون العجز وفى أول دينهم تسخير الطبيعة ، وكيف يطلبون الراحة وفى تاريخهم عمل معجزة كبرى ، وكيف يركنون إلى الجهل وأول أمرهم غايات العلم ، وكيف لا يحملون النور للعالم ، ونبيهم هو الكائن النورانى الأعظم ... وفى ذلك وقبله يقول النبى ﷺ : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » [1] ، وفى رواية أخرى بزيادة « ويلهمه رشده » [2] ... إنه الغاية التى لا خداع فيها ولا ضلال ، والنور الهادى للسكينة والحق ، « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » [3] ... إنه حفز الهمم لرد العوادى عنه ، وتجلية صورة القوة فيه ... إنه نقل الناس من نطاق أهوائهم إلى حيث يرضى الله ، بذلك يكون الزمام لهدايات الرحمن ، لا لهمزات الشيطان.

---

١- رواه البخارى ، ومسلم ، وأحمد عن معاوية ، وأحمد والترمذى عن ابن عباس (الجامع الصغير ص ٣١٦).

٢- رواه أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ( الجامع الصغير ص ٣١٦ ) وحسنه.

٣- سورة المجادلة من الآية رقم (٢٢).

## مفهوم الخلاف :

( خالف ) عنه مخالفة وخلافا : تخلف . وإلى الشيئ : أتاه من خلفه. وعن الأمر : خرج . وفى التنزيل : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » [1] . ويقال : خالفه إلى الأمر : قصده بعد ما نهاه عنه، وفى التنزيل العزيز : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»[2]. والشيئ : ضاده . ويقال : خالف بين الشيئين ، وغايره ، ( اختلف ) الشيئان لم يتفقا ، و - لم يتساويا. [3]

و ( الخلاف ) : شجر الخلاف - الصفصاف - معروف وموضعه المخلفة ، ويراد أنها من شجر مختلف. وتخالفا الأمران واختلفا : لم يتفقا. وكل مالم يتساو فقد تخالف واختلف. وقوله عز وجل : « والنخل والزرع مختلفا أكله»[4] أى فى حال اختلاف أكله ، وهو قد نشأ من قبل وقوع أكله ؟ فالجواب فى ذلك أنه قد ذكر إنشاء بقوله : « خالق كل شئ » [5] ، فأعلم جل ثناؤه أن المنشئ له فى حال اختلاف أكله هو ، ويجوز أن يكون أنشأه ولا أكل فيه مختلفا أكله ، لأن المعنى مقدراً ذلك فيه.

و ( الخلاف ) : المضادة. وقد خالفه مخالفة وخلافا. وفى المثل : إنما أنت خلاف الضبع الراكب ، أى تخالف خلاف الضبع ، لأن الضبع إذا رأت الراكب هربت منه. حكاه ابن الأعرابى وفسره بذلك. [6]

---

١- سورة النور من الآية رقم (٦٣).

٢- سورة هود من الآية رقم (٨٨).

٣- المعجم الوسيط جـ١ ص ٢٦٠ ، ( مادة خلف ).

٤- سورة الأنعام من الآية (١٤١).

٥- سورة الأنعام من الآية (١٠٢).

٦- لسان العرب ص ١٢٤٣ مادة ( خلف ) ، المعجم الوجيز ص ٢٠٨.

**بيان المراد :**

يمكن أن نقول : إن الخلاف إنما يعنى الاختلاف وعدم الاتفاق والتساوى سواء أكان فى الإيجاد أم فى الفهم ، وذلك سنة مضطرة من سنن الله - عز وجل - فى خلقه وملكوته ، ومن ثم فلا خلاف على ضرورة الاختلاف ...

ففى مجال الطبيعة : تتعدد الألوان ، وتختلف الأشكال ، فيكون الجمال وذلك كما جاء فى قول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » [1]. إن خشية العلماء إنما تنبع من استشعار قدرة الله البادية من هذا التكوين المختلفة الذى نرى منه روعة الجمال.

والإنسان بوصفه خلقا من خلق الله تعالى ، ومن بديع صنعه ، تتجلى فيه سنة الاختلاف ، فنجد الاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فى الشكل التكوينى ، وفى الألوان ، وفى اللسان ، وفى الفكر ، وهذه حقيقة علمية أثبتتها الأبحاث العلمية مؤخرا من خلال بصمات الإنسان وصوته ، وقد أكدت هذه الأبحاث بعدم إمكانية تطابق ذلك بين إنسان وإنسان.

وصدق الله العظيم حيث قال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » [2].

وإذا كنا لا نستطيع أن ننكر أن الظاهرة الفكرية هى إحدى الخصائص الجوهرية التى انفرد بها الإنسان عن غيره من خلق الله ، إذ بها يستطيع تنظيم التراكم الفكرى ، والبناء الحضارى وفق عطاءات ذلك التراكم ، وهو عماد مايعرف بالبناءات الحضارية للأمم الإنسانية.

---

١- سورة فاطر الآيتان رقم (٢٧ ، ٢٨).
٢- سورة الروم الآية رقم (٢٢).

إذ أن ( الفكر ) هو الهبة الإلهية التى وهبها الله للإنسان ، لكى تقوده لإنفاذ مراد الله تعالى منه : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » [1] ، وكلما خطا الإنسان فى سبيل تحقيق هذه الخلافة فى الأرض ، اتسعت فرجات الخلاف ، حتى تولدت من هذا الخلاف المذاهب الفلسفية ، والإجتماعية ، والإقتصادية المختلفة ، والسياسية ... الخ ، وصار الاختلاف ضرورة ، فإذا لم يكن هناك خلاف فى وجهات النظر ... لم تكن هناك آمال فى مستقبل أفضل ... ولا قضايا أصح. ولله در القائل :

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر ∴ فالحق لا يخفى على الاثنين
والمـــرء مرآة تـريه وجـــهه ∴ ويرى قفـــاه بجمع مرآتين

وقال آخر :

الرأى كالليل مسود جـوانـبه ∴ والليـل لا ينجـلى إلا بمصبـاح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى ∴ مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

يقول أفلاطون فى هذا العام : « إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ، ولا أخطئوه فى كل وجوهه ، بل أصاب كل إنسان جهة ، ومثال ذلك : عميان انطلقوا إلى فيل وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده ، ومثلها فى نفسه ، فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة ، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته تشبه الهضبة العالية ، والرابية المرتفعة ، وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره ، فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك ، وكل يكذب صاحبه ، ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل ؛ فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وأنظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم » [2].

---

١- سورة البقرة من الآية رقم (٣٠).
٢- تاريخ المذاهب الإسلامية ، أبو زهرة ، جـ١ ، ص ٥ ، ٦ .

والإسلام قد قرر ذلك ، فقد جعل من تعدد الآراء واختلافها منهاجا للنبى ﷺ وهو النبى المعصوم ، وذلك إظهاراً لحكمته - جل شأنه - من هذا الاختلاف الذى رفع بإدراك حكمة الخلاف ، قال تعالى : فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » [1] ، حينئذ لا بأس من تعدد الآراء ، لتتسع الدائرة ، التى يتحرك فيها المكلفون تيسيرا وعونا ، ذلك أنها ليست أهواء تتناطح ، بيد أنها زهور تتكامل وتتلاقح ، زهور متعددة الألوان والطعوم ... فبعد الخلاف يبدو أكثر من لون ، وأكثر من طعم ، وهذا أمر ضرورى ... ولا غرو بأن ذلك يوجب علينا استقبال آراء الآخرين بحفاوة ، إذ لو كان الأمر بخلاف ذلك لخلق الله - تعالى - الخلق على شكل واحد وبصورة واحدة بل وعلى استعداد واحد ، لكن شاءت حكمته - سبحانه - وجود هذا التباين والاختلاف بين الإنسان ، والإنسان ، حتى فى الحالة الفكرية ، سواء فى طبيعتها وخصوبتها ، أو فى درجتها وحيوتها ، أو فى نتائجها الظاهرة والتى تتمثل فى ( الرأى ) أو ( الموقف الفكرى ) الذى يقفه كل إنسان ، وهذه حقيقة أبدية تحتم علينا التسليم ببعض الفرضيات ، فنحن لا نعيش بمعزل عن الآخرين ، وصدق الله العظيم حيث قال : « ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » [2].

**ظاهرة الخلاف :**

مما سبق تبين لنا أن ظاهرة الخلاف الإنسانى حقيقة فطرية ، وإرادة ربانية ، بحكمة مقصودة ، إلا أنها - فى قسمها الجوهرى - تبقى سرا من أسرار الوجود ... ولكن مع كل هذا لا نستطيع أن ننكر بأن لهذا الخلاف الفكرى له أسباب موضوعية كثيرة كشف عن بعضها الامام الشهرستانى حيث قال :

---

١- سورة آل عمران الآية رقم (١٥٩).
٢- سورة هود من الآيتين (١١٨ ، ١١٩).

« اعلم أن أول شبهة وقعت فى الخليقة شبهة إبليس لعنه الله ، ومظهرها : استبداده بالرأى فى مقابلة النص ، واختياره الهوى فى معارضة الآمر ، واستكباره بالمادة التى خلق منها وهى النار ، على مادة آدم عليه السلام وهى الطين ، وانشعبت من الشبهة سبع شبهات ، وسارت فى الخليقة ، وسرت فى أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة » [1].

وعلى ضوء هذا يمكننا إبراز أسباب هذه الظاهرة ( الخلاف الفكرى ) التى أصلها إبليس اللعين ، وافتتن بها من حاد عن الصواب من أهل الزيغ والهوى والانحراف ، فعموا غيرهم ونشأ عن ذلك البغض والكراهية والفرقة بين أهل الملة الواحدة ، والدين الواحد ، ولو فقهوا حكمة الخلاف ما زاغ البصر وما طغى ، وائتلفت القلوب وتقاربت الأفكار ... فى عصر اختفت فيه الحدود ، وتداخلت الثقافات ، وذابت الجزر المنعزلة ، وأصبحت النظرية الواحدة مستحيلة ، إن لم تكن نوعا من الانتحار الفكرى.

ولقد أجهد الفقهاء - المسلمون - أنفسهم فى إبراز أسباب الخلاف الفقهى بين الأئمة الأعلام فى مختلف قضايا الفقه الإسلامى ، محللين ، ومعللين ، فراحوا يحددون الأسباب الموضوعية فأجملوها فى :

١- ظروف المعلومة ، كتوفر حديث عند أحدهم ، ولم يتوفر عند الآخر.

٢- ثبوت الرواية عند أحدهم ، وعدم ثبوتها لدى الآخر.

٣- اختلاف دلالة اللغة وترددها بين معنيين.

وهذا كله صحيح ، وشواهده حية ، سواء فى الفقه الإسلامى ، أو فى أى نشاط فكرى آخر ، إلا أن هناك سر إلهى مشبوت فى هذه الظاهرة الفكرية ، والتى أقرها العلماء من خلال فحصهم للخط المشكوك فيه ، والمعلوم بـ (صحة

---

١- الملل والنحل ، جـ١ ، ص ١٦.

التوقيع)، فأيقنوا أن هناك بصمة فكرية لدى الإنسان ، والتى تختلف من شخص لآخر ، كما تختلف البصمة الصوتية ، أو بصمة الأصبع من إنسان لآخر ، رغم كل الظروف المتوافقة ، حتى ليصح لنا أن نقول إن هناك (بصمة) فكرية تختلف من شخص لآخر ، لا يكاد يشبهها بصمة أخرى ، وهذا إعجاز إلهى ظاهر، وإرادة ربانية ، يقف المرء أمامها ، بل الإنسانية جمعاء وصدق الله العظيم حيث قال :

«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ... »[1].

وقديما قالوا ثلاثة لا يتماثلون : الخط ، والصوت ، والشعر ، فالشعر ماهو إلا موقف فكرى خالص ، فلكل شاعر له ميزة شعرية تختلف عن الشاعر الآخر ... كما أن هدى الله للإنسان برهان واضح للحد من تضارب الأفكار لدى الشخص الواحد ، وهذا الموقف الفكرى ليس له تعليل ( فكرى ) ، ... إن تحول الإنسان من الكفر إلى الإيمان عناية ، فقد تعرض على الكافر الجاحد كافة الأدلة، والبراهين ، والترغيبات ، والترهيبات التى تدفعه إلى الإيمان ونبذ الكفر ، إلا أنه لا يرضى إلا الكفر ... لكن قد تأتى لحظة غامضة فى الداخل لا يعرف بها من حوله ، تقلب موقف الإنسان الفكرى كله رأسا على عقب ... هنا يقرر صاحبه الإيمان ، ونبذ الكفر ... وهذا كله قد يأتى بلا سبب موضوعى ، أو علة ظاهرة للإتجاه الفكرى ، ولكن سراً غامضا يبقى فى الإنسان وراء هذا الإتجاه الفكرى المتحول ، لا يصل إليه المفكرون أولوا النهى ... سوى قولهم إنها هداية الله ومشيئته ، قال تعالى : « قل إن هدى الله هو الهدى »[2] ، وقال سبحانه : «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »[3].

---

١- سورة فصلت من الآية (٥٣).
٢- سورة الأنعام من الآية (٧١).
٣- سورة الأنعام الآية (١١١).

ولذلك نعى القرآن الكريم ، وشدد النكير على من توهم أن هذا التحول الفكرى النفسى من الكفر إلى الإيمان ، إنما يتوقف على مجرد توفير الأسباب الموضوعية ، رغم أن الله - عز وجل - طلب من المسلمين توفيرها ، والجهاد لها لإعلاء كلمة الله.

إلا أنه نهاهم عن أن يعلقوا عليها - وحدها - قضية الهدى ، قال تعالى : «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» [1] ، وقال أيضا : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » [2] ، وقال جل شأنه : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ... »[3].

## أسباب الخلاف الموضوعية :

فى ضوء ما سبق نقول : إن الإختلاف سنة إجتماعية تفرض نفسها : «ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » [4] ، فوجود الاختلاف مع تحقق دواعى الاتفاق ، وعلى قدر تفاوت الناس فى درجات التفكير تكون مسافة الخلف بينهم ، فتضيق هذه المسافة وتتسع طبق ما يتوفر لها من عناصر الحكمة الضابطة . وقبل أن نخوض فى بيان أسباب الخلاف يجب أن نقرر أمرين :

١- أن الخلاف لم يتناول لب الدين ، فلم يكن فى وحدانية الله تعالى ، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ولا فى القرآن أنه نزل من عند الله - تعالى - وأنه معجزة النبى الكبرى ، ولا فى أنه يروى بطريق متواتر نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلا بعد جيل ، ولا فى أصول الفرائض ، كالصلاة ،

---

١- سورة القصص الآية (٥٦).

٢- سورة يونس من الآيتين (٩٩ ، ١٠٠).

٣- سورة الأنعام من الآية (١٢٢).

٤- سورة هود من الآيتين (١١٨ ، ١١٩).

والزكاة، والصوم ، والحج ... ، ولا فى طرق آداء هذه التكاليف ... وبعبارة أخرى : لم يكن الخلاف فى ركن من أركان الإسلام ولا فى أمر من أمور الدين ، علم بالضرورة ، كتحريم الخمر والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والقواعد العامة للميراث ، وإنما جاء الاختلاف فى أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة.

٢- أن هذا الاختلاف - بلا شك - شر بالنسبة للاختلاف حول بعض العقائد، وحول السياسة ، ولذلك روى البخارى عن زينب بنت جحش - رضى الله عنها - أنها قالت : " استيقظ النبى ﷺ محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب » ، ويشير النبى ﷺ إلى ما يجرى بين المسلمين من خلاف بعد وفاته ﷺ . (١)

وروى أبوهريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » (٢) ، ولقد تكلم علماء السنة فى صحة هذا الحديث الذى روى بعدة طرق مختلفة. ولقد قال « المقبلى » فى كتابه العلم الشامخ :

« وحديث افتراق الأمة إلى سبعين فرقة روايات كثيرة ، يشد بعضها بعضا بحيث لا تقبل ريبة فى حاصل معناه ...! »

ولما كان الافتراق حول العقائد والأصول الثابتة فى جملته شراً ، فإن الاختلاف فى غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة لم يكن شراً ، بل كان دراسة عميقة لمعانى الكتاب والسنة ، وما يستنبط منهما من أقيسة ، ولم يكن افتراقا بل كان خلافا فى النظر ... ذلك أن كل فقيه كان يستعين بأحسن ما

---

١- الجامع الكبير - السيوطى - حرف الألف واللام رقم : ٣ .

٢- رواه : الترمذى ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة ، ( الجامع الصغير - السيوطى وصححه ص ٤٤).

وصل إليه الفقيه الآخر ، ويوافقه أو يخالفه ، وكان عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - يسره اختلاف الصحابة فى الفروع ويقول :

« ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحداً لكان الناس فى ضيق. وأنهم أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة » [1].

والذى يعنينا فى هذا المقام هو هذا السؤال :

لماذا اختلف المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ وقد ترك الأمة على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ؟ وترك فيهم ما إن أخذوا به لن يضلوا أبداً ، كتاب الله - عز وجل - وسنته ﷺ ؟

والإجابة عن هذا ممثلة فى أن أسباب الخلاف كثيرة ... الأمر الذى جعل منها الخلاف المحمود ، والخلاف المذموم ، فالخلاف المذموم هو ذلك الخلاف الذى جاء الدين لدحره ، والوقوف فى وجهه إمتثالا لقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون » [2] ، لذلك نقول : إن خلاف الهداية محمود ، وخلاف العداء والشقاق بين الأمة مذموم. ومن ثم لزمنا نبذ أسباب الخلاف أيا كان هذا الخلاف لنعود إلى حقيقة الدين فنعلوا من خلاله ، لنجنى من بستانه ثمار الوحدة والألفة والمودة.

وإليك بعض هذه الأسباب بإختصار :

---

١- انظر الاعتصام ، للإمام الشاطبى ، جـ ٣ ، ص ١١.

٢- سورة آل عمران الآية (١٠٣).

١- العصبية العربية :

أولى أسباب الخلاف ، بل هى جوهر الخلاف ، الذى فرق أمر الأمة ، ولقد حارب الإسلام العصبية فى كثير من نصوصه ، قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (١).

وقال ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » (٢) ، وقال أيضا : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان » (٣).

ولقد اختفت العصبية فى عصر النبى ﷺ وأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - من خلال هذه البينات الواضحات ، إلى أن جاء عصر عثمان - رضى الله عنه - فانبعثت فى آخر عهده قوية عنيفة ، وكان انبعاثها له أثره البين فى الخلاف بين الأمويين ، والهاشميين أولا ، ثم الاختلاف بين الخوارج وغيرهم ..

٢- التنازع على الخلافة :

لقد انبعث هذا النوع من الخلاف بعد وفاة النبى ﷺ بين الأنصار والمهاجرين، فقد قال الأنصار : نحن آوينا ونصرنا ، فنحن أحق بالخلافة ، وقال المهاجرون : نحن أسبق إلى الإسلام ، فنحن أحق ..... ولكن قوة إيمان الأنصار حسمت الموقف وبتر الخلاف ، لكن سرعان ما اشتد الخلاف مرة أخرى حول الخلافة ذاتها. وظهرت هذه الأسئلة ... من يكون أحق بها ؟ أيكون من قريش جمعاء ، أم يكون من أولاد على - كرم الله وجهه - خاصة ، أم يكون من المسلمين أجمعين ، لا

---

١- سورة الحجرات ، الآية (١٣).

٢- رواه أبو داود عن جبير بن مطعم ، ( الجامع الصغير ، السيوطى ، ص ٢٧٥ وحسنه ).

٣- رواه البزار عن حذيفة ( الجامع الصغير - السيوطى - ص ٢٣٦ وحسنه ).

فرق بين بيت وبيت ، وقبيلة وقبيلة ، ذلك أن الجميع أمام الله سواء ، وقد قال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [1] .... الأمر الذى ترتب عليه أن انقسم المسلمون إلى «خوارج» ، و «شيعة» وفرق أخرى ، شغلت بأمر الخلافة .

٣- التقاليد الموروثة :

لقد دخل كثير من أهل الديانات الأخرى - اليهود ، النصارى ، والمجوس ، وغيرهم - الإسلام ، وفى أذهانهم بقايا أفكارهم الدينية القديمة ، وكانوا يفكرون فى الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة ... وقد أثاروا بين المسلمين ماكان يدور بينهم من حوار فى ديانتهم من الكلام فى الجبر ، والإختيار ، وصفات الله - عز وجل - ... الخ.

ومنهم من دخل فى الإسلام ظاهراً وأبطن غيره ليفسد على المسلمين أمور دينهم ، ويبثوا الأفكار المنحرفة ، ولذا وجد بين المسلمين من نشر أفكاراً مردية ، كما فعل الزنادقة وغيرهم ... لذلك تحكمت التقاليد الموروثة بين المسلمين ، وازدادت هوة الخلاف بالأفكار المنحرفة سواء كانت موروثة ، أم مفتعلة ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » [2].

٤- القصص :

يقول الله تعالى فى قصص القرآن الكريم : « إن هذا لهو القصص الحق»[3] والعلة من ذكره ، وروده فى الذكر الحكيم واضحة من خلال قول الله

---

١- سورة الحجرات من الآية رقم (١٣).

٢- سورة البقرة الآية رقم (١٧٠).

٣- سورة آل عمران من الآية رقم (٦٢).

تعالى : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » [1] ، وقوله : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » [2] ، لذلك لا عجب إن رأيت عليا - كرم الله وجهه - يخرج القصاص من المساجد ، ولم يجعل لهم مكانا فيه .... وذلك لما كانوا يضعونه فى أذهان الناس من خرافات وأساطير.

ولكن بانتهاء عصر على - رضى الله عنه - كثر القصاص فى العصر الأموى ، وأخذ صورا وأشكالا مختلفة ، ولا غرو بأن لهذا أثره الواضح فى الخلاف ، خصوصا إذا شايع القاص صاحب مذهب ، أو زعيم فكرة أو سلطان ، وشايع الآخر غيره ، فإن ذلك الخلاف يسرى فى العامة ، وتسوء العقبى ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك فى العصور الإسلامية المختلفة .... [3].

ومن المؤسف أن تجد على الساحة الإسلامية اليوم آلاف الشرائط المسجلة والكتب المؤلفة فى ذكر الموت وأهوال القبر ، وكذلك الجن وما يحدث منه للإنسان من إيذاء وتسخير ، وزواج ... الخ وقد نسج حول هذه المسائل قصص وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان ، وتركت أهم المسائل والقضايا المعاصرة التى لا يجب بأى حال تركها ، وما أكثرها فى واقعنا المعاصر ، وذلك كالتحلل العقدى الناشئ عن التغريب. وعدم الإهتمام بالعبادات مادام هناك إيمان بالقلب ، وإشاعة الفوضى والجنس عن طريق الحرية ، وإهمال الأسرة لصديق العائلة ، هذا من جانب، ومن جانب آخر وهو الأخطر : الجهل الدينى ، وعدم الاتقان فى العمل للنهوض بالمسلمين ، والثقة فيمن لا يدين بدينك ، والخوف والحذر والتشكيك فيمن يدين بدينك وعدم الولاء له ، والانبهار بالثقافة الغربية ، والتحرج من الثقافة الإسلامية ... الخ ، ولا غرو بأن لكل بيئة ، بل ولكل مجتمع قضاياه الخاصة به ، التى يجب أن تكون محل بحث ودراسة بين المجتهدين والمصلحين

---

١- سورة الأعراف من الآية رقم (١٧٦).
٢- سورة يوسف من الآية رقم (١١١).
٣- أنظر تاريخ المذاهب الإسلامية ، الشيخ محمد أبو زهرة ، ص ١٥.

على حد سواء ، وإلا ستكون الأمة بين يدى المجتهدين والمصلحين كالطفل الرضيع شغلته اللاهية عن ثدى أمه فمات دونها ، وهى تظن أنها تحسن صنعا.

**٥- الهوى والاستبداد :**

إن صاحب الهوى لا يعاند دينه ، وإلا كان خارجا عن الإسلام ، وإنما يعاند الواقع ويتمرد على الحركة ، فهو يرى أنه يستحق فوق ماهو فيه ... وهذه حالة نفسية توجد منابتها فى كل نفس بشرية ... وهى تنبت فى النفوس بدرجات متفاوتة ، فقد تبقى مجرد أرق نفسى ، يضنى صاحبه ، ويؤرق إحساسه ، إلا أنه يظل حبيس نفسه ، لا يتعدى إلى السلوك العملى ، فهذا أمره شخصى ، وضرره هين ... لكن قد يصبح هذا الشعور بركانا نفسيا فى ضمير صاحبه ، بحيث يتعدى إلى السلوك العملى ، ليتمثل بعد فى صورة افتراق وشقاق واستبداد بالرأى والتوجيه ... ومن ثم يبحث - هذا المريض - عن فكرة أو موقف يبرر من خلاله موقفه ... فتجد هذه الفكرة هوى بين الناس ، فتكبر الفكرة وتجد من يدافع عنها ويحميها فتختلف الأمة ويكون النزاع والشقاق.

وثمة جوانب أخرى فى مسألة ( الهوى ) ، تتمثل فى تلك العصبية البارزة من أصحاب الحركات القائمة لحركتهم ، والتى تصل - أحيانا - إلى حد تقديم الولاء للحركة على الولاء للإسلام ، مما يولد حزازات نفسية ، ويرسب فى المشاعر روح الفرقة والعداء للآخرين ، وصدق الله حيث قال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » [١].

**٦- غياب العقل الواعى :**

إن الكثير من الخلافات والشقاقات التى تطفو على ساحة العمل الحركى بين المسلمين - اليوم - ، ترجع إلى غياب العقل الواعى ، المدرك لحقائق الأمور ،

---

١- سورة آل عمران من الآية رقم (١٠٥).

الذى يحمل هم الغد ، ويعمل على اختراق المجهول دون تخوف أو تهيب ، محاولا الابتكار والتجدد فى المسار الحركى للدعوة ... لقد فقدت ساحة العمل الحركى للدعوة هذا العقل ، الأمر الذى حدث عنه انفجارات ، وانشطارات داخل الصف ، وتفتيت العمل الحركى داخل الجبهة الإسلامية.

إن عدم التفكير بلادة للعقل ، وتبلد للجسد ، وإماتة للفضيلة ، وفساد فى الحياة ، وما جاء الإسلام إلا ليوقظ العقل ، فيصح الجسد ، وتحيا الفضيلة ، فتطيب الحياة ، ولن يكون ذلك إلا من خلال ( اقرأ ) فمن خلالها تختفى من بيننا قضية ( العذر بالجهل ) ، ذلك أن الجهل ما زال مانعا من الوصول إلى الحق، قال تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون » [1] ، وعن موسى وقومه يقول سبحانه : « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » [2].

ولى أن أقول : هل لهذا التجاهل عذر ؟؟

لقد استهلكت هذه القضية ( العذر بالجهل ) النشاط الفكرى ، والجهد العصبى ، ودونت فيها رسائل نثرا ونظما ، وقتلت بحثا [3] ، وبالتالى لا مجال لمجادل ولا لمكابر فى تعليله بالجهل ، فلقد تساوى الكل عند النشأة الأولى حيث قال سبحانه : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » [4] ، وهذا لا عيب فيه ، بل العيب

١- سورة الأحقاف الآيات رقم ( ٢١ - ٢٣ ).
٢- سورة الأعراف من الآية رقم (١٣٨).
٣- أنظر المسائل الفقهية التى لا يعذر فيها بالجهل ( نظما ) للعلامة : بهرام بن عبدالعزيز.
٤- سورة النحل الآية رقم (٧٨).

التقصير فى إزالة الجهل ، وهذا لا يكون إلا بالتعلم ، وطلبه فرض ... ومن ثم فإن العقل الواعى المدرك لحقائق الأمور لم يشغله إلا الواقع ، وما فيه من قضايا جادة ، وهذا أمر هام وضرورى ، وإلا فسيفقد ثقة من حوله ، ولا يرى منهم إلا تمرداً وإعراضا ... والسبب غياب العقل الواعى.

**٧- غياب ثوابت العمل الحركى :**

إن العشوائية ، واللحظية ، وغياب الثوابت ، تفتح الباب على مصراعيه للتفلت والاستقلالية بالعمل ، أى : الانشقاق ، والتفرق ، ولا غرو بأن أى عمل لابد وأن ينطلق من إطار يحكم عليه انطلاقه ، هذا الإطار تفقده الجماعة المتحركة لنشر الدعوة ، وبالتعبير السياسى : ( استراتيجية الحركة ).

قال الله تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » [1] ... إن هذه الآية الكريمة قد حددت موقف المؤمنين بعد موقف الله - عز وجل - ورسوله ، فى رؤية العمل. هذا العمل لابد وأن يكون نابعا من إطار ألفته الجماعة وحددت معالمه ، وأصبح أمراً ثابتا ، من ابتعد عنه افتضح ... وهذا معلوم من رؤية المؤمنين لعمل غيرهم ... بذلك ينضبط سلوك الفرد والجماعة ، وما كان هذا الانضباط إلا من خلال وضوح الإطار العام الذى يحكم ثوابت العمل الحركى ، كى تتحقق شهادة المؤمنين ورؤيتهم للعمل والحكم عليه ، وإلا فسيكون الاختلاف والتفرق ... ، وتكون العشوائية فى العمل - الفردى ، الجماعى - لفقدان الثوابت.

---

١- سورة التوبة الآية رقم (١٠٥).

٨- عدم الإلمام بطبيعة حركة الفكر :

الحركة الفكرية ، كنشاط إنسانى لها قوانينها الخاصة ، وطبيعتها الخاصة -أيضا- فى التكوين والنمو ، ومن أهم قوانين حركة الفكر : قانون الحرية ... ذلك أنه لا يصح فكر بلا حرية ، وهذه حقيقة إنسانية تاريخية ثابتة ... فلكى ينشأ فكر صحيح ، راشد ، جاد ، لابد له من حرية أكيدة كى يبدع ، ويبعد عن التقليد المميت.

والحق : أن الكثير من الذين يعملون فى حقل الدعوة اليوم يدركون قيمة هذا القانون ، ومع ذلك فهم لا يستطيعون أن يترجموا إحساسهم ذلك ... بالرغم من أنهم ذاقوا مرار الكبت والحرمان ، وحرموا الحرية الفكرية ...

إن حرية الفكرة تعطى أكثر ما يعطيه ارهاب الفكرة ، والذين يحمون حماهم بسياج من الرهبة الفكرية خشية نفاذ الأفكار المخالفة لها ... إنهم بذلك خالفوا الصواب واستحدثوا الفرقة الداخلية داخل الإنسان ، فكان التمرد الساخط، والقرآن الكريم حين يواجه هذه الظاهرة نراه يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » [١] ، ويقول سبحانه : مخاطبا نبيه ﷺ : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » [٢] ، ويقول سبحانه : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » [٣] ، ويقول : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » [٤] ، ما أسما هذا الإتجاه وما أروعه ، لقد لمس القلب والعقل ، وجعل للإنسان حريته الفكرية «فمن شاء

---

١- سورة البقرة من الآية رقم (٢٥٦).

٢- سورة الغاشية الآيتان ( ٢١ ، ٢٢ ).

٣- سورة ق من الآية (٤٥).

٤- سورة الكافرون